الأدب
في العصر الفاطمي
(358هـ - 567هـ)

يعد العصر الفاطمي العصر الذهبي حضارة وأدبًا وفكرًا؛ فلقد ازدهرت الحضارة ازدهارًا عظيمًا، وتقدم الفكر، وانتعش الأدب بصورة لا نجد لها مثيلًا في العصور السابقة على العصر الفاطمي.

ولعل انتعاش الأدب وازدهاره يعود - في ذلك العصر - إلى عدة أسباب، أهمها:

1- الثراء والبذخ:

عرف الفاطميون بثرائهم وغناهم ثراء وغنى لا نظير له؛ فلقد كانت هذه الدولة قائمة بالمغرب قبل قدومها إلى مصر، وكان لها من الملك والاتساع اللذين أديا إلى أن تمتلئ خزانتها بالأموال، وكان خلفاؤها يصرفون ببذخ شديد على الدور والقصور والملابس والهدايا والتحف؛ ومما يدلنا على ثرائهم أن المعز حينما بلغه فتح مصر، أخرج من الأموال ما هو حمولة خمسمائة جمل، ثم سار بها نحو الديار المصرية.[1]

ومما يدلنا على ذلك أيضًا قول المقريزي من أن الفاطميين رصعوا بالجواهر آنية المطبخ، واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعًا كذلك، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس، وصاغوا من الذهب المرصع تماثيل آدمية وخشبية [2].

ودليلنا على ذلك أيضًا أن رشيدة بنت المعز قد خلفت بعد وفاتها ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وأن ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت إلى أخيها مرة هدايا منها ثلاثون فرسًا من الذهب.

(1) النجوم الزاهرة، ج 4، ص 71.

(2) انظر: الخطط، ج 2، ص 260 وما بعدها.

والحق أن المقريزي قد أعطانا صورة واضحة لما كانت عليه الدولة الفاطمية من بذخ ونعيم، وإن شئت فلترجع إلى الجزء الثاني من الخطط.

ويكفي أن نشاهد الآن مبانيهم ومساجدهم وقصورهم الباقية؛ لنرى إلى أي حد كان هؤلاء الخلفاء يعيشون في ترف وثراء وبذخ.

وطبعي أن يمتد ذلك الثراء أو شيء منه إلى الحاشية ومن انخرط في سلك الفاطميين من الكتاب والأدباء والشعراء، فيدفعهم إلى القول والنظم.

2- الاستقرار وطول الفترة:

استقر الأمر للفاطميين، وطالت فترة حكمهم؛ إذ امتدت أكثر من قرنين من الزمان، وقد أسفر ذلك عن استقرار اجتماعي ونفسي وازدهار حضاري، نفسي كان من شأنه أن يجعل الشعراء ينطلقون ناظمين بلا وجل أو خوف، كما ساعد هذا الاسقرار على المرح والانطلاق واللهو، والإقبال على الحياة، وإنشاد الشعر، والتباري فيه، والتنافس بين الشعراء.

3- بلاغة الفاطميين وفصاحتهم، وحبهم الأدب وتشجيعهم الأدباء:

كان الفاطميون عربًا خلصًا، يتميزون بالفصاحة والبلاغة واللسن، ومما يدلنا على ذلك أن منهم من كان أديبًا، وما زالت بطون الكتب تحتفظ بشيء من شعرهم، ولقد قيل عن المعز والعزيز والظاهر أنهم كانوا أدباء، يحبون الأدب ويشجعون عليه، ولهم ملكاتهم الشعرية ومواهبهم الأدبية؛ بل إن تميم بن المعز قد خلف لنا ديوانًا شعريًّا ضخمًا، وقد وصل إلينا هذا الديوان.

وكان الأدباء يلقون من التشجيع والعناية والرعاية ما يفوق الوصف، فكثروا كثرة قد لا نجد لها نظيرًا في عصور مصر الإسلامية السابقة.

واتخذ الفاطميون من الشعر وسيلة دعاية لمذهبهم الشيعي، وسلاحًا ضد أعدائهم، ودرعًا يدافعون بها عن دولتهم.

لقد قرب الفاطميون إليهم الشعراء، وأجزلوا لهم العطاء، وأجروا عليهم الرواتب السخية، ومنحوهم الهبات السنية، إلى درجة أنهم كانوا أحيانًا يعطون عن القصيدة

الواحدة ضيعة بأكملها؛ بل إنهم جعلوا من وظائف الدولة وظيفة مقدم الشعراء (1)، التي ليس لها نظير من قبل.

ويروي لنا المقريزي أنه في الاحتفال بيوم عاشوراء، كان يوضع في منظرة بركة الحبش طاقات وعليها صور الشعراء، كل شاعر واسمه واسم بلده، وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش، عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب(2)، يضع الخليفة على كل رف صرة فيها خمسون دينارًا، ويدخل كل شاعر فيأخذ صرته.

ويعلق أحد الأساتذة الأجلاء على ذلك قائلًا: " فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد، بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متنزهات عامة؛ مما يدل - دلالة قاطعة - على تمجيد لفن الشعر والشعراء " (3).

4- كثرة المواسم والأعياد والاحتفالات:

اهتم الفاطميون - اهتمامًا بالغًا - بالاحتفالات والأعياد، وكثرت في عهدهم المواسم الدينية وغير الدينية، إلى درجة أن الإنسان يخيل إليه حينما يقرأ تاريخ الفاطميين أن أيامهم كلها قد تحولت أعيادًا.

لقد بالغ الفاطميون في هذه الاحتفالات، واستحدثوا أعيادًا كثيرة، مثل مولد النبي، ومولد علي بن أبي طالب، والسيدة فاطمة، والحسن والحسين، واستحدثوا مواسم أخرى، مثل موسم رأس السنة، ويوم عاشوراء، وعيد الغدير، وكسر الخليج، هذا بالإضافة إلى أعياد النصارى، مثل يوم الغطاس ويوم الميلاد وعيد النيروز، التي شاركوا فيها إخوانهم المسيحيين، واحتفوا بها أيما احتفاء.

---

(1) انظر: الخطط، ج 2، ص 365.

(2) الخطط، ج 1، ص 379، والمقصود بالخليفة هنا الآمر بأحكام الله.

(3) في أدب مصر الفاطمية، د. محمد كامل حسين، ص 159، ط دار الفكر العربي، سنة 1970.

وكان الفاطميون – في هذه الأعياد - يمدون الأسمطة، ويخلعون الخلع، ويهبون الهبات، وكان الشعراء في هذه الاحتفالات والأعياد يتبارون بأشعارهم، ويتنافسون على إرضاء الخليفة والحاشية، ويحاولون إجادة شعرهم؛ ليعجبوا علية القوم، فتكثر خلعهم، وتزداد صرر أموالهم، فكان ذلك سببًا مهمًّا من أسباب ازدهار الشعر في ذلك العصر.

لقد توافرت الأسباب، ووجدت الدواعي الكثيرة التي أدت إلى ازدهار الأدب ونهضته آنذاك.

ولكن كان أهم ما يهم الفاطميين، هو نشر مذهبهم الشيعي بكل سبيل، وكان الشعر إحدى هذه السبل المهمة؛ لذلك قرب الفاطميون إليهم الشعراء، وأجزلوا لهم العطاء، وشجعوهم على قول الشعر؛ لأنهم يعلمون أن الشعر لغة العاطفة والوجدان، وأقرب إليهما من القول العادي، وأكثر تأثيرًا في النفوس، وكان حتمًا على الشعراء الذين عاشوا في ظل الدولة الفاطمية أن يصطبغ شعرهم بصبغة عقائدية شيعية، وأن يتلون بلون مذهبي فاطمي.

لقد جاء الفاطميون إلى مصر بمذهب ديني مختلف عما كان عليه جل المصريين، الذين كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة؛ ولذلك أراد المصريون أن يعرفوا موقف الدولة الجديدة من مذهبهم، فخرج وفد مصري لاستقبال جوهر الصقلي، فكتب لهم جوهر كتاب أمان.

ولكن الفاطميين لم يفوا بهذا العهد، فما إن استقرت لهم الأمور حتى أخذوا ينشرون مذهبهم بكافة السبل، وكانت أولى الخطوات في ذلك أن جوهر الصقلي قطع الخطبة لبني العباس.

ومن الطرق التي استخدمها الفاطميون في سبيل نشر مذهبهم ما هو إداري وما هو اجتماعي وما هو علمي وأدبي، أما الناحية الإدارية: فقد عملوا على إحلال الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب المهمة، مثل منصب: داعي الدعاة وقاضي القضاة، وكان من أثر هذه السياسة أن اعتنق كثير من المصريين المذهب الشيعي.

وفي الناحية الاجتماعية: اتخذوا سياسة الترف، وإغداق النعم والعطايا على أفراد الشعب؛ توددًا وتحببًا؛ حتى يستطيعوا استدراجهم لمذهبهم، وراحوا يحتفلون بالمواسم والأعياد، وحرصوا على المشاركة فيها.

ومن الناحية العلمية فقد برعوا - براعة عظيمة - في ذلك؛ حيث استغلوا الجوامع القديمة، مثل جامع ابن طولون، لتكون مدارس يعلمون الناس مذهبهم، كما أقاموا جوامع جديدة، مثل الأزهر، الذي كان جامعة ومركزًا أساسيًّا في نشر العقيدة الشيعية، وأنشأوا دار الحكمة، التي التحق بها كثير من العلماء، وألحقوا بها مكتبة كبيرة.

وأما الناحية الأدبية فقد عنوا عناية عظيمة بالشعراء والكتاب، وغيرهم من رجال الأدب؛ لنشر المذهب الشيعي.

أ- الشعر

ومن ثم كان من الطبعي أن يتلون الشعر في ذلك العصر بهذا المذهب تلونًا واضحًا؛ بل متأثرا – إلى حد بعيد - بالأفكار الشيعية، والنظريات الفاطمية، ويصطبغ بها اصطباغًا.

ونود – هنا - أن نشير إلى أهم النظريات الفاطمية الشيعية التي تأثر بها شعراء ذلك العصر، ولعل أولى هذه النظريات هي نظرية المثل والممثول، التي تتضح في قول تميم بن المعز حينما مدح العزيز بالله قائلًا:

جِئْتَ الخِلافَةَ لَمَّا أنْ دَعَتْكَ كَمَا ... وَافَى لِمِيقَاتِهِ مُوسَى عَلَى قَدَرِ

مَا أَنْتَ دُونَ مُلُوكِ العَالَمِينَ سِوى ... رُوحٍ مِنَ القُدْسِ في جِسْمٍ مِنَ البَشَرِ

نُورٌ لطيفٌ تَنَاهَى فِيكَ جَوْهَرُهُ ... تَناهيًا جَازَ حَدَّ الشَّمْسِ والقَمَرِ

مَعْنًى مِنَ العِلَّةِ الأُولَى التي سَبَقَتْ ... خَلْقَ الهَيولي وبَسْطَ الأرضِ والمَدَرِ[1]

---

(1) ديوان تميم، ص 224.

فالشاعر يمدح الإمام هنا "بأنه ليس كغيره من الملوك؛ لأن نفس الإمام اللطيفة روح قدسية حلت في جسم كثيف ترابي، وأن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل الذي سماه هنا بالعلة الأولى" [1]، وأن هذه العلة الأولى هي "أول خلق الله، فهو سابق لخلق الهيولي، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله عز وجل إليه سبحانه، فكذلك الإمام – الذي هو مثل العقل – أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة، وهو متصل بالله تعالى؛ لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى" [2].

وهذه النظرية نفسها نجدها في قول المؤيد في الدين داعي الدعاة، حينما يمدح المستنصر قائلًا:

قَـدْ خُلِقـتُمْ مِـنْ طِينَـةٍ وخُلِقْنَـا ... نَحْـنُ مِنْهَـا لِكْـنْ بَـدَا تَرْتَيِـبُ

إنَّ أجْـسَامَكُم لنَـا شِـئَةُ الطَّيـ ... ـنِ الـذي مِنْـهُ شـقَّ مِنـا القُلـوبُ[3]

فالشاعر يمدح الإمام بأن جسمه عقل كله؛ "لأن جسم الإمام خلق من الطينة التي خلقت منها قلوب البشر ... فما هو كثيف عند الإمام هو لطيف عند غيره من عامة الناس "[4].

ولذلك فهو أقرب المخلوقات إلى الله عز وجل، وأول ما أبدعه الله.

والحق أن هذا تأثر بنظرية الفيض الأفلاطونية، وبأقوال الفلاسفة الذين يرون أن العقل الكلي هو أول الفيوضات، ويسمونه بالسابق، ثم يليه النفس الكلية "التالي".

وعلى هذه الشاكلة مضى الشعراء الفاطميون متأثرين بهذه النظرية، كما نرى في قول المؤيد أيضًا:

---

(1) في أدب مصر الفاطمية، ص 177؛ وانظر: عصر الدول والإمارات، د. شوقي ضيف، ج 6، ص 240.

(2) انظر: المصدر السابق.

(3) ديوان المؤيد، ص 209، تحقيق: د. محمد كامل حسين، ط دار الكتب المصري، سنة 1949.

(4) في أدب مصر الفاطمية، ص 182.

مـا النُّـونُ يَـا صَـاحِ تُـرَى والكَـافُ فـــالخَلْقُ دُرٌّ وَهُمَـــا أصْـــدَافُ

وعَــــنْهُما يَـــأْتلِفُ الوُجُـــودُ لِمَـــنْ هُـــوَ المُـــشَاهدُ المَوْجُـــودُ(1)

فالكاف هنا رمز إلى القلم، والنون رمز إلى اللوح المحفوظ، "ويسمى القلم عندهم بالسابق وهو العقل الكلي عند الفلاسفة ... واللوح بالتالي"(2)، وهو ما يسمى عند الفلاسفة بالنفس الكلية.

وعلى أساس هذه النظرية، يرى الفاطميون أن النبي هو القلم، والوصي هو اللوح، والإمام مثل للقلم، والحجة مثل للوح، وللمثل جميع المواصفات وخصائص الممثول"(3).

ولعل أول شاعر في هذا العصر وصلنا ديوانه هو المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بن موسى الشيرازي، وشعره كله متأثر بالعقيدة الفاطمية، ولذلك انظر إليه يقول في مدح الإمام المستنصر:

يَــا مَــسِيحًا يُكَلِّــمُ النَّــاسَ طِفْــلًا ضَــلَّ فِي شَــأْنِه أَخُــو اللُّــبِّ لُبَّــا

لَــسْتَ دُونَ المَــسِيحِ سَــمَّاه رَبًّــا أَهْــلُ شِرْكٍ وَلاَ نُــسَمِّيكَ رَبَّــا(4)

تجده يصف الإمام بأنه نبي، وصفاته هي صفات النبي نفسها؛ لأنه وارث كل شيء؛ بل إنه يجمع صفات الأنبياء كلهم - كما يقول:

سَـــــلاَمٌ عَليْـــــكَ فمَحْـــــصُوهُمْ لَـــدَيْكَ أَيَـــا صَـــاحِبَ القَـــاهِرَه(5)

وقوله هذا قائم على أساس نظرية يؤمن بها الفاطميون، وهي نظرية الدور والتسلسل، وخلاصة هذه النظرية أن الحياة متجددة، ومقسمة إلى فترات ست، وعلى

(1) ديوان المؤيد، ص 199، 200.

(2) في أدب مصر الفاطمية، ص 181.

(3) السابق، ص 181.

(4) ديوان المؤيد، ص 241.

(5) ديوان المؤيد، ص 286.

رأس كل فترة نبي، وبين كل نبي وآخر أئمة يخلفونه في شئون دينهم، وأن ما يحدث في فترة من هذه الفترات يحدث ما يشبهه تمامًا في الفترات الأخرى (1).

ويستكملون هذه النظرية قائلين: "إن النبي محمدًا جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله، أي أنه في دوره مثل آدم ... وهو إبراهيم في دوره ... ولما كان الإمام يقوم مقام النبي فهو مجمع الأدوار(2)، ووارث الأنبياء كلهم، وكل من سبقه من الأئمة.

ويخيل إلينا أن العقائد الفاطمية قد أثرت في جميع الشعراء الذين اتصلوا بالبلاط الفاطمي، وهذا هو الشريف أبو الحسن علي بن محمد الأخفش، يقول في مدح الحافظ:

بَشَرٌ فِي العَيْنِ إلاَّ أَنَّهُ　　مِنْ طَرِيقِ العَقْلِ نُورٌ وهُدَى
جَلَّ أَنْ تُدْرِكَهُ أَعْيُنُنَا　　وَتَعَالَى أَنْ تَرَاهُ جَسَدَا
فَهْوَ فِي التَّسبِيحِ زُلْفَى رَاكِعٍ　　سَمِعَ اللَّهُ بِهِ مَنْ حَمِدَا
تُدْرِكُ الأفْكَارُ فِيهِ نَبَأً　　كَادَ مِنْ إجْلاَلِهِ أَنْ يُعْبَدَا (3)

فهو يمدح الخليفة بصفات باطنية معروفة لدى الشيعة، وتلك هي النظرية الفلسفية الفاطمية الثالثة، وهي التي تقول: إن لكل شيء ظاهر باطنًا، ويرى الشيعة أنهم مختصون بعلم الباطن، وأن الله استودع هذا العلم لكبار الدعاة، "وأن التأويل الباطن من عند الله خص به علي بن أبي طالب" (4).

وعلى أساس هذه النظرية مضوا يئوِّلون الأشياء، ويفسرون آيات القرآن الكريم، ومن ذلك – عندهم – أن الإمام هو وجه الله، ويد الله، والصراط المستقيم، والذكر الحكيم. والإمام عن طريقه نور، لا يحد بالأبصار، ولا يدرك بالعيون.

---

(1) طائفة الإسماعيلية، د. محمد كامل حسين، ص 168.

(2) في أدب مصر الفاطمية، ص 183.

(3) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، العماد الأصفهاني، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، ج 1، ص 241، ط دار الكتب المصرية، 2005.

(4) طائفة الإسماعيلية، ص 161.

ولذلك نرى الشاعر في الأبيات السابقة يصف الإمام بأنه يُرى جسدًا بالعين، لكنه عن طريق العقل نور، وإذا مضينا مع بقية الأبيات – حسب التأويل الباطني للشيعة – فإننا نرى تفسيرهم للركوع بأنه طاعة الإمام، وأن التسبيح هو البراءة والتنزيه لله تعالى، وأما "سمع الله به من حمدا" فمعناه "أن كل من صار إلى الدعوة وجب عليه حمد الله على ما أصاره من فضله إليه، وأطلعه من أمر أوليائه عليه" (1).

وعلى أساس نظرية الظاهر والباطن، أوَّل الفاطميون كثيرًا من فرائض الدين؛ فالصلاة عندهم اتجاه بالقلب إلى الإمام، والصيام إمساك عن كشف السر، والطواف بالبيت هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، وزيارة الإمام حج، والتطهير هو التبري والتنظيف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام، ومعنى ذلك أن الصلاة صلاتان، والصوم صومان، والحج حجان، وأنه ما خلق الله من ظاهر إلا له باطن يدل عليه.

ومن قبيل هذا التأويل الباطني ما نراه في قول عمارة اليمني وهو يمدح الخليفة العاضد:

وعَلَيْكَ مِنْ شِيَمِ النَّبِيِّ وحَيْدَرٍ ... للنَّاظِرينَ أَدِلَّةٌ وَشُهُودُ
والوَحْيُ يَنْطِقُ عَنْ لِسَانِكَ بالَّذِي ... مِنْ دُونِه يَصْدَعُ الجُلْمُودُ
يَوْمٌ جَلَتْ فِيهِ الإِمَامَةُ عِزَّهَا ... وَلَهَا المَلائِكَةُ الكِرَامُ جُنُودُ (2)

فالوحي في التأويل الباطني هو داعي الدعاة، والملائكة هم الدعاة، وهم جنود الخليفة.

والحق أن الفاطميين أولوا كل شيء، وجعلوا له ظاهرًا وباطنًا، وقد تأثر الشعراء بذلك كله، خاصة في مديح الأئمة، وكان الشعر الذي يلم بالعقائد الشيعية شعر صنعة في أغلبه؛ فلقد كان الشاعر "يجهد نفسه في أن يأتي في شعره ببعض العقائد، وأن يلائم بين

(1) في أدب مصر الفاطمية، 185؛ انظر: في هذا التأويل الباطني كتاب تأويل دعائم الإسلام.
(2) النكت العصرية، عمارة اليمني، ص 198.

هذه العقائد والألفاظ التي يختارها لشعره، ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر "[1].

ب- النثر

بدأت شخصية مصر تظهر في النثر بجلاء منذ العصر الطولوني، وقد بلغ هذا النثر أوج ازدهاره وقمة مجده في العصر الفاطمي على أيدي مجموعة من الكتاب المرموقين، مثل ابن أبي الشخباء، وابن الخلال، وابن قادوس، وابن الصيرفي[2].

وقد تعددت ألوان النثر في العصر الفاطمي؛ وذلك لاهتمام الفاطميين بالأدب عامة، وبديوان الإنشاء – الذي كان له دور بارز في نهضة النثر – خاصة.

وكان من أهم هذه الألوان النثرية: الرسائل؛ ديوانية وإخوانية، والخطابة والسجلات والسير.

والحق أن الفاطميين قد عنوا بالنثر – وخاصة الكتابة – عناية فائقة، والدليل على ذلك أنهم اهتموا بديوان الإنشاء اهتمامًا بالغًا، وقد كان هذا الديوان من أهم الدواوين في ذلك العصر؛ فلقد كان يلي مرتبة الوزارة، كما يشير إلى ذلك القلقشندي، وكان لا يتولى هذا الديوان إلا أجلّ الكتاب بلاغة، وكان يخاطب بالأجلّ، ويقال له كاتب الدست الشريف[3].

لقد عني الفاطميون بالنثر – وخاصة الكتابة – لأسباب عديدة، أهمها:

1- امتداد سلطان الفاطميين واتساع ملكهم أديا إلى حاجتهم إلى الكتابة والكتاب.

2- كان الفاطميون أصحاب مذهب شيعي ديني يختلف عن المذهب السني، وكانوا يريدون نشر هذا المذهبي، فاحتاجوا إلى الدعاة الذين يبثون عقائدهم وأفكارهم في كل مكان.

---

(1) في أدب مصر الفاطمية، ص 194.

(2) انظر: على سبيل المثال كتاب: "الأفضليات لابن الصيرفي".

(3) انظر: صبح الأعشى، القلقشندي، ج 3، ص 485، 486.

3- اهتمامهم بديوان الإنشاء، هذا الديوان الذي كان يقوم على "شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية" [1].

4- حاجة الفاطميين إلى تسجيل كل دقيقة وعظيمة [2] في سجل يكتب في هذا الديوان، الذي لا يتولاه إلا من كان صاحب لسن وبلاغة وقدرة أدبية فائقة، ولا يوظف فيه إلا من كان على درجة عالية من الثقافة.

5- تنافس الكتاب في إظهار مقدرتهم على صياغة المكاتبات والسجلات.

6- أن وزراء العصر الفاطمي الأول كانوا من الكتاب، وكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة [3]، وقد أدى هذا الأمر إلى أن يتبارى كتاب هذا الديوان في إجادة كتابتهم، وإظهار مهارتهم وبلاغتهم؛ لأنهم يعلمون أن هذا الديوان هو الطريق إلى الوزارة.

7- إغداق الهبات والخلع السنية والإقطاعات على صاحب ديوان الإنشاء وعلى كل موظفيه، وقد أدى ذلك إلى "إقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة؛ ليصلوا إلى مرتبة الكتابة في الدواوين"[4]، وينالوا من التشريف والتكريم ما ينال الكتاب في ذلك الديوان.

السمات العامة للكتابة الفاطمية "رسوم الكتابة الفاطمية" [5]:

1- الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر؛ فلقد كان كتاب ذلك العصر يضمنون ويستشهدون بالقرآن والحديث، ويحلون رسائلهم بشيء من الشعر والحكم والوصايا.

---

(1) عصر الدول والإمارات، د. شوقي ضيف، ص 401.

(2) انظر: في أدب مصر الفاطمية، ص 312.

(3) انظر: في أدب مصر الفاطمية، ص 311.

(4) انظر: في أدب مصر الفاطمية، ص 310.

(5) انظر: الأفضليات لابن الصيرفي دراسة فنية، د. غريب محمد علي، مجلة آداب حلوان، عدد 8، سنة 2000م.

2- استخدام البديع؛ بل الإسراف فيه أحيانًا، والإغراق في استخدام بعض ألوانه؛ كالسجع والجناس اللذين أولعوا بهما ولعًا شديدًا، ويكاد يكون السجع – على وجه التحديد – خصلة بارزة، التزم بها الكتاب جميعًا في ذلك العصر.

3- التأثر بالعقائد الشيعية والأفكار الفاطمية، ولا غرابة في ذلك؛ فلقد عاشوا في عصر دانت دولته بمذهب التشيع، وعملت على نشره بكل سبيل.

4- صار للكتابة مقدمات تستفتح بها، ورسوم يلتزمها الكتاب التزامًا، وذلك مثل: "من عبد الله ووليه فلان إلى ..."، ومثل: "الحمد لله راحم خلقه وإن عظمت ذنوبهم".

فمطالع الكتابة غالبًا ما تبدأ بالتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم ذكر المرسل والمرسل إليه.

5- الاهتمام بحسن الخاتمة؛ فكما اهتم الكتاب الفاطميون بحسن المطلع فقد اهتموا بحسن الخاتمة؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع ويبقى في الأذهان، وذلك مثل قولهم: "وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين"، مستخدمين في ذلك الآيات القرآنية، أو ينهون كتبهم بالدعاء للخليفة مثل: "والله تعالى يديم على الأمة ظل مولانا ودولته، ويثبت سلطانه ومملكته".

نماذج من النثر الفاطمي:

1- **من فن الكتابة:**

مما كتب عن الآمر بأحكام الله تعالى عند استقراره في الخلافة بعد أبيه المستعلي بالله ... من إنشاء ابن الصيرفي:

"الحمد لله المتوحد بالبقاء، القاضي على عباده بالفناء، الذي تمجد بالأزلية والقدم، وتفرد بالوجود وتنزه عن العدم، وجعل الموت حتمًا مقضيًّا على جميع الأمم.

يحمده أمير المؤمنين على ما خصه به من الإمامة التي قمَّصه سربالها وورثه فخرها وجمالها، حمد شاكر على جزيل العطية، صابر على جليل الرزية، مسلم إليه في الحكم والقضية ..." (1).

2- **من الخطابة:**

من خطبة المعز لدين الله عند وفاة أبيه المنصور:

"... الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الأعز الأقدر... أيها الناس، إن الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يمهلكم سدًى، ولم يجعل عليكم في الدين حرجًا، ولم يضرب الذكر عنكم صفحًا، للعبادة خلقكم، وبطاعته وبطاعة رسوله أمركم ... فتقربوا إلى الله بما أمركم به ... وكبروا الله على ما هداكم، واشكروه على ما أولاكم ... نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتنانه، وبلوغ الأمل من رضوانه ورحمته وإحسانه.

... عظم والله علينا المصاب بك، وحل البلاء، وعدم العزاء لفقدك، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء فضائلك وتعداد مناقبك، أيها الناس ما من حي إلا وهو رهين بالموت، ولا موت إلا بعد نشور، ولا نشور إلا بحساب فثواب أو عقاب، فطوبى لمن يتقي الله".

3- **من السجلات:**

من السجل الذي أصدره الظاهر إلى نقيب نقباء الطالبيين محمد ابن علي الحسني الرسي:

"بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فالحمد لله شافع إحسانه بالمزيد، ومتابع إنعامه على الشاكر المستزيد، ومجير المعتصم بحبله من كيد الكائد، ومعيذ المستعيذين من شر الحاسد ... انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين ما أوقفه الخراصون من الإرجاف بصرفك عن نقابة الطالبيين، وقبض يدك بعد البسط والتمكين ... وما عراك بعد ذلك من ضعف المنة بعد قوتها ... وقد رأى أمير المؤمنين – وبالله توفيقه – تجديد إحسانه إليك، وتوكيد

(1) انظر: صبح الأعشى، ج 8، ص 237 وما بعدها.

إنعامه عليك، وتكذيب المرجفين بسلبك ما في يديك بما أمر به من كتب هذا السجل لك ... " (1).

4- من فن الرسائل:

من رسالة لابن أبي الشخباء يهنئ فيها ابن المغربي بالفتح:

"... أطال الله بقاء سيدنا الوزير الأجلّ، ما سطع الصبح بعموده، وهمهم السحاب برعوده، وطلعت في الأفق أنجم سعوده ...

فقد ألبس الله الدهر من مناقب الحضرة السامية ما أخرس الأئمة، وأفاض على الكافة من آلائها ما تملك به رق المآثر، ويعجز عنه كل ناظم وناثر ... فما ينفك – خلد الله أيامه – يذود عن الدولة برأي صائب وحسام قاضب، يتحاسد عليه الدروع والدراعة، ويتنافس فيه الصمصامة والبراعة ...

كان العبد خدم المجلس السامي بخدمة قصدها التهنئة بما فتح الله تعالى من الظفر بالعدو الذي أطاع شيطانه، ومد في مضمار الغي أشطانه ...

وأرجو أن يكون التوفيق قضى بوصلها، وأذن في قبولها، فيمتد ظل ويثري مقل، ويصوب عارض مستهل.

وله – أدام الله عزه – الرأي العالي فيه إن شاء الله تعالى " (2).

***

(1) أخبار مصر في سنتين، المسبحي، تحقيق: وليم، ج ميلورد، ص 26، 28، ط الهيئة العامة، سنة 1998م.

(2) معجم الأدباء، مجلد 9، ص 152 وما بعدها، ط دار صادر بيروت.